معنى الفناء فى الله

للإمام العلامة ابن القيم

شرح ابن القيم كتاب الفقيه المفسر المحدث الصوفى الإمام الهروى — منازل السائرين إلى الحق عز شأنه — فوضح ما يعنيه الصوفية بالفناء فى الله عز وجل وبين أن ذلك بعيد عما يتوهمه من لا معرفة له من اتحاد أو حلول أو غير ذلك .

قال صاحب المنازل « باب الفناء » قال الله تعالى : (كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام) .

وقال ابن القيم رحمه الله « الفناء » المذكور فى الآية ليس هو الفناء الذى تشير إليه الطائفة ، فإن الفناء فى الآية الهلاك والعدم . أخبر سبحانه : أن كل من على الأرض يعدم ويموت ويبقى وجهه سبحانه ، وهذا مثل قوله : « إنك ميت وإنهم ميتون » ومثل قوله : « كل نفس ذائقة الموت » قال الكلبى ومقاتل : لما نزلت هذه الآية قالت الملائكة هلك أهل الأرض ، فلما قال تعالى : « كل شىء هالك إلا وجهه » أيقنت الملائكة بالهلاك . قال الشعبى : إذا قرأت « كل من عليها فان » فلا تسكت حتى تقرأ « ويبقى وجه ربك ذو الجلال » . وهذا من فقهه فى القرآن وكمال علمه ، إذ المقصود : الإخبار بفناء من عليها مع بقاء وجهه سبحانه . فإن الآية سيقت لتمدحه بالبقاء وحده ، ومجرد فناء الخليقة ليس فيه مدحه ، إنما المدح فى بقائه بعد فناء خلقه ، فهى نظير قوله : « كل شىء هالك إلا وجهه » .

وأما « الفناء » الذى تترجم عنه الطائفة : فأمر غير هذا . ولكن وجه الاشارة بالآية إليه أن « الفناء » المشار إليه هو ذهاب القلب ، وخروجه من هذا العالم وتعلقه بالعلى الكبير الذى له البقاء فلا يدركه الفناء ، ومن فى محبته وطاعته وإرادة وجهه أوصله هذا الفناء إلى منزل البقاء . وهو ذو الجلال والإكرام ،

فكأنها تقول : إذا تعلقت بمن هو فان : انقطع ذلك التعلق عند فنائه أحوج ما نكون إليه وإذا تعلقت بمن هو باق لا يفنى : لم ينقطع تعلقك ودام بدوامه ، و « الفناء » الذى يترجم عليه : هو غاية التعلق ونهايته . فإنه انقطاع عما سوى الرب تعالى من كل وجه . ولذلك قال : « الفناء فى هذا الباب : اضمحلال ما دون الحق علما ، ثم جحدا ، ثم حقا » .

قلت : « الفناء » ضد « البقاء » والباقى : إما باق بنفسه من غير حاجة إلى من يبقيه ، بل بقاؤه من لوازم نفسه . وهو الله تعالى وحده . وما سواه فبقاؤه ببقاء الرب . وليس له من نفسه بقاء كما أنه ليس له من نفسه وجود . فإيجاده وإبقاؤه من ربه وخالقه . وإلا فهو ليس له من نفسه إلا العدم قبل إيجاده ، والفناء بعد إيجاده .

وليس المعنى : أن نفسه وذاته اقتضت عدمه وفناءه ، وإنما « الفناء » أنك إذا نظرت إلى ذاته - بقطع النظر عن إيجاد موجده له - كان معدوما . وإذا نظرت إليه بعد وجوده - مع قطع النظر عن إبقاء موجده له - استحال بقاؤه . فإنه إنما يبقى بإبقائه كما أنه إنما يوجد بإيجاده ، فهذا معنى قولنا « إنه بنفسه معدوم وفان » فافهمه .

وقد اختلف الناس : هل إفناء الموجود وإعدامه بخلق عرض فيه يسمى الفناء والإعدام ؟ أم بإمساك خلق البقاء له . إذ هو فى كل وقت محتاج إلى أن يخلق له بقاء يبقيه ؟ وهى « مسألة الإعدام المشهورة » .

والتحقيق فيها : أن ذاته لا تقتضى الوجود : وهو معدوم بنفسه ، فاذا قدر الرب تعالى لوجوده أجلا ووقتا انتهى وجوده عند حضور أجله ، فرجع الى أصله وهو العدم . نعم قد يقدر له وقتا ثم يمحو سبحانه ذلك الوقت ، ويريد اعدامه قبل وقته ، كما أنه سبحانه يمحو ما يشاء ، ويريد استمرار وجوده بعد الوقت المقدر له الى أمد آخر ، فانه يمحو ما يشاء ويثبت قال الله تعالى حاكيا عن نبيه نوح عليه السلام قال : « ياقوم ، انى لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخر إلى أجل مسمى » فإذا أراد الله سبحانه إبقاء الشىء : أبقاه إلى حين يشاء ، وإذا أراد إفناءه ، أعدمه بمشيئته كما يوجده بمشيئته .

فان قيل : متعلق المشيئة لا بد أن يكون أمراً وجوديا ، فكيف يكون العدم متعلق المشيئة ؟!

قيل : متعلق المشيئة أمران : إيجاد وإعدام ، وكلاهما ممكن ، فقول القائل : « لا بد أن يكون متعلق المشيئة أمراً وجوديا » دعوى باطلة ، نعم العدم المحض لا تتعلق به المشيئة وأما الاعدام : فهو أخص من العدم .

ولولا أنا فى أمر أخص من هذا لبسطنا الكلام فى هذه المسألة وذكرنا أوهام الناس وأغلاطهم فيها .

وقوله : « الفناء اسم لاضمحلال ما دون الحق علما » يعنى ، يضمحل عن القلب والشهود علما ، وإن لم تكن ذاته دانية فى الحال مضمحلة ، فتغيب صور الموجودات فى شهود العبد بحيث تكون كأنها دخلت فى العدم ، كما كانت قبل أن توجد ، ويبقى الحق تعالى ذو الجلال والاكرام وحده فى قلب الشاهد ، كما كان وحده قبل إيجاد العوالم .

قوله : « علما ، ثم جحدا ، ثم حقا » هذه الثلاثة هى مراتب الاضمحلال إذا ورد على العبد على الترتيب ، فإذا جاء دهلة واحدة لم يشهد شيئا من ذلك ، وإن كان قد يعرف ذلك إذا عاد إلى علمه وشهوده فإن الرب سبحانه إذا رقى عبده بالتدريج نور الله باطنه وعقله بالعلم ، فرأى أنه لا خالق سواه ، ولا رب غيره ولا يملك الضر والنفع والعطاء والمنع وغيره ، وأنه لا يستحق أن يعبد — بنهاية الخضوع والحب — سواه ؛ وكل معبود سوى وجهه الكريم فباطل ، فهذا توحيد العلم .

ثم إذا رقاه الحق سبحانه درجة أخرى فوق هذه : أشهده عود المفعولات إلى أفعاله سبحانه ، وعود أفعاله إلى أسمائه وصفاته ، وقيام صفاته بذاته فيضمحل شهود غيره من قبلته ، وجحد أن يكون لسواه من نفسه شىء ألبتة ، ولم يجحد السوى بجحده الملاحدة ، فإن هذا الجحود عين الالحاد .

ثم إذا رقاه درجة أخرى : أشهده قيام العوالم كلها — جواهرها وأعراضها ذواتها وصفاتها — به وحده ، أى بإقامته لها وإمساكه لها ، فإنه سبحانه يمسك السموات والأرض أن تزولا . ويمسك البحار أن تغيض أو تفيض على العالم

ويمسك السماء أن تقع على الأرض ، ويمسك الطير فى الهواء صافات ويقبضن ، ويمسك القلوب الموقنة أن تزيغ عن الايمان ، ويمسك حياة الحيوان أن تفارقه إلى الأجل المحدود ، ويمسك على الموجودات وجودها ، ولولا ذلك لاضمحلت وتلاشت والكل قائم بأفعاله وصفاته التى هى من لوازم ذاته ، فليس الوجود الحقيقى إلا له ، أعنى الوجود الذى هو مستغن فيه عن كل ما سواه ، وكل ماسواه فقير إليه بالذات ، لا قيام له بنفسه طرفة عين .

ولما كان للفناء مبدأ وتوسط وغاية : أشار إلى مراتبه الثلاثة ، فالمرتبة الأولى فناء أهل العلم المتحققين به . والثانية : فناء أهل السلوك والارادة ، والثالثة : فناء أهل المعرفة المستغرقين فى شهود الحق سبحانه .

فأول الأمر : أن تفنى قوة علمه وشعورة بالمخلوقين فى جنب علمه ومعرفته بالله وحقوقه . ثم يقوى ذلك حتى يعدهم كالأموات وكالعدم ، ثم يقوى ذلك حتى يغيب عنهم بحيث يكلم ولا يسمع ويمر به ولا يرى ، وذلك أبلغ من حال السكر ، ولكن لا تدوم له هذه الحال ولا يمكن أن يعيش عليها .

ابن القيم

من روائع الأدب الصوفى :

محبة الله

أحبك حبين حبَّ الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهلٌ له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذالى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

رابعة العدوية